الأدب فى سير أعلامه :

ملتن . . .

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٤ —

الفردوس المفقود : مرفوع القصيدة الكبرى : —

فى سنة ١٦٥٨ أخذ ملتن كما أسلفنا يتوفر على نظم قصيدته الكبرى ، ومن ثم تعد هذه السنة بدء هذا العمل العظيم وإن كانت أجزاء قليلة من القصيدة قد نظمت قبل ذلك كما يقول ابن أخته إدوارد فيلبس ، ولم تنته سنة ١٨٦٣ حتى فرغ الشاعر الضرير كما يقول إدوارد كذلك من هذه القصيدة العظيمة التى تبلغ زهاء خمسة آلاف وخمسمائة سطر ، والتى تستغرق نيفا وثلثمائة صفحة متوسطة الحجم ، والتى تعد من أعظم الآثار الأدبية فى أدب الدنيا قديمه وحديثه ، والتى يتبوأ بها ملتن مكانه بين أفذاذ شعراء اللاحم الثلاثة : هوميروس ودانتى وفرجيل إن لم يبرعهم جميعاً فى أكثر من ناحية من القول كما يذكر كثير من النقدة الملحوظ المكانة فى نقد الأدب والشعر .

ويمكن تلخيص موضوع القصيدة فى كلمات قليلة ؛ فهى قصة إبليس بعد أن فسق عن أمر ربه ، فقد تمرد هذا الشيطان الأكبر ومن اتبعه من الغاوين واجترأ على محاربة خالقه فأخذهم الله أخذاً قويا فإذا بهم جميعاً فى جهنم جثيًّا ؛ ثم خلقت جنات عدن وخلق آدم وحواء ودلهما الله على الشجرة المحرمة ونهاهما ربهما أن يقربا هذه الشجرة ، فوسوس لهما الشيطان فأكلا منها وعصيا ربهما فأخرجهما من الجنة .

وحق للمرء أن يعجب كيف يخلق الشاعر من هذه القصة على بساطتها قصيدة بلغت هذا الذى بلغته من الطول ، وما فيها منظر أو فكرة مما يصح حذفه ، ثم ما فيها موضع تطرق اليه شيء من الضعف أو شيء مما يبعث السأم فى نفس القارىء ، بل إنها جميعاً تبلغ من السمو والقوة مدى يتخاذل دونه جهد المبدعين ويتقاصر عنه افتنان المفتنين فما يقع المرء فيها إلا على مايعجب ويطرب وما يشيع فى النفس نشوة روحية قوية تشعرها بسر العبقرية وسلطانها وتذرها مسحورة مأخوذة حتى ينقضى هذا الحلم الجميل .

ولكن دواعى العجب لاتلبث أن تزول إذا ذكر المرء مبلغ ما أوتى الشاعر من خصوبة الخيال وقوته ، ومارزق من دقة الوصف وروعته ، وما وهب من قدرة على الابتكار والتفنن فى خلق الصور الذهنية الأخاذة والتصرف فى مذاهب البيان ، هذا إلى مايشيعه فى قصته من فلسفة وعلم ، وما يدخله بين الفينة والفينة من أساطير الأغريق وآلهتهم وسائر مخلوقاتهم مما يملأ قصيدته بألوان من السحر وأفانين من كل مايفيد ويمتع .

والقصيدة ليست بنت هاتيك السنوات الخمس التى نظمها فيها ؛ وإنما هى منتجه خياله وأرب نفسه منذ أول عهده بالشباب ، فقد كان أمله الذى ملأ خياله منذ حداثته أن ينظم قصيدة تجعل له ولأمته مكانا عليا فى أدب هذه الدنيا ؛ وإلى ذلك أشار فى قصيدته التى ناجى فيها لغة قومه وهو فى سن التاسعة عشرة كما سلف أن ذكرنا ذلك فى موضعه ، وإن لم يك يبين موضوع تلك القصيدة بعد .

ولم يتعجل ملتن النظم ، بل أخذ يتهيأ لما يطمح إليه فينهل من المعرفة مايسعه أن ينهل ، وفى نفسه أمل يلازمه ولا يبرح يذكره أنه سوف ينظم فى يوم ما ملحمة كبرى تسلكه فى الخالدين النابهين من شعراء الدنيا ، أما ماذا تدور عليه الملحمة فذلك أمر لم يتبينه يومئذ وحسبه أن يطلب لنفسه ماوسعه من زاد فى الفلسفة والعلم .

وكان يفكر كما ذكرنا قبل فى الملك آرثر وعصره وبطولته وسيرته عله يستخرج من ذلك ملحمة قومية كان يريد أن

إلى عبادته وأمه « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » هذا كثير ، ومدعاة إلى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل إلا جملة القصر أكان يستفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب غرضان من أغراض القصر ، ووقفنا عند الأغراض التى ذكرها المتقدمون ، ولا نزال فى انتظار الجديد .

على العمارى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

يسميها الآرثربادا ، وتقع إشارتان منه إلى ذلك إحداهما في قصيدة أخرى نظمها عقب عودته إلى وطنه ؛ ولكنه مالبث أن طرح موضوع الملك آرثر جانباً ولم يعد إليه بعد ذلك .

وظل ملتن متعلقا بأمله في نظم قصيدة كبرى ، وكان هذا التعلق المتصل بالأمل المنشود هو الفكرة المتسلطة في حياته كلها من جميع أقطارها ولذلك لم يأل جهداً في الافادة مما حوله فكان انقطاعه للدراسة في هورتون ، وكانت رحلته إلى إيطاليا وكان منصبه في الدولة وكانت كتاباته الدينية والسياسية ، كل أولئك كان جوانب لدراسته وموارد لثقافته قصد إلى ذلك أم لم يقصد إليه .

وانقطعت صلته بالشعر زهاء عشرين عاما إلا ما كان من مقطوعاته ، ولكن خيال القصيدة الكبرى لم يبارحه قط ، وليس أدل من ذلك على شدة إيمانه بأنه خلق لرسالة في الشعر وعلى عظم إخلاصه لفنه ، ولقد رأينا ما أحاط به من المحن والكوارث فلم يصرفه ذلك عما خصص له حياته ، وإن واحدة منها لكفيلة بأن تقعد بالمرء عما يخف كثيراً عن ذلك الذي اضطلع به من عبء .

وربما كان خيراً له وللأدب أنه لم ينظم ملحمته الكبرى إلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره فلعلنا كنا لو نظمها في صدر شبابه لانظفر منه بما ظفرنا به من آثار خبرته بالحياة والناس وطول باعه في البيان وضلاعته في المعرفة وانصقال فنه وما اكتسب شعره من فخولة وقوة . ولقد حال بينه وبين تحقيق أمله في شبابه ورغبته كما رأينا في الاستزادة من الثقافة استزادة تكافىء ما يطمع أن ينهض به من عمل ضخم في دنيا الفن ، ثم حيرته في اختيار الموضوع الذي تدور حوله قصيدته ، وجاءت بعد ذلك حربه على القساوسة ثم اشتغاله بالسياسة فأخرته على رغمه تلك السنوات الطويلة .

ولقد هم قبل تلك الشواغل سنة ١٦٤١ بالنهوض بما منته نفسه به ، إذ أنه يتبين من قائمة كتبها الشاعر بين سنتي ١٦٤٠ ، ١٦٤٢ أنه فكر فيما يقرب من مائة موضوع ، وكان ثلثا هاتيك الموضوعات مقتبساً من الانجيل ، وكان همه متجها إلى واحد من بينها سماه تارة « الفردوس المفقود » وتارة « آدم يخرج من الجنة » فقد وجد في هذه القائمة بيان بأسماء شخصيات لدراما يرسمها وبيان لما تكون عليه تلك الدراما وقد وضع لذلك عدة صور لعله كان يفاضل بينها ، ولا زالت تلك القائمة محفوظة كأثر من آثار الشاعر العظيم في مكتبة كلية ترينتي بجامعة كمبردج .

ويتبين من ذلك أن ملتن كان يومئذ يريد أن يلبس موضوعه لباس الدراما لا الملحمة ، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره في هذا الصدد إدوارد فيلبس ، وذلك أن الأسطر التي يخاطب بها الشيطان الشمس في أوائل الكتاب الرابع من الملحمة قد نظمت قبل بدء الشاعر في نظم الملحمة بنحو خمسة عشر أو ستة عشر عاما وأنها نظمت لتكون في مستهل عرض لمأساة .

ثم انصرف ملتن كما رأينا عن الشعر وانشغل عن أمنيته الكبرى حتى كانت سنة ١٦٥٨ فتوفر على موضوعه ، فلما أتمه كان ملحمة تضاف إلى الملاحم الكبرى في أدب العالم وسميت الفردوس المفقود .

ونظمت الملحمة في ستة أقسام أو ستة كتب ، ولقد أوجزنا موضوعها في أول هذا الفصل فلنبسط هنا بعض البسط ، ولا نجد خيراً من أن نقص خلاصة هاتيك الكتب الستة التي تتألف منها القصة .

افتتح الشاعر الكتاب الأول بمناشدة إله الشعر أو إلاهاته[1] العون فيما هو بسبيله على عادة شعراء الملاحم عند بدء ملاحمهم ، ثم يعرض الشاعر الموضوع كله فيذكر أول عصيان للانسان وما يترتب عليه من إخراجه من الجنة حيث كان موطنه ، ويشير إلى غواية الشيطان ، ويذكر عصيانه وتمرده على خالقه واستطاعة ضم أكثر من قبيل من الملائكة إليه ، حتى طرده الله من الجنة ومن اتبعه وألقى بهم في قرار من جهنم سحيق ؛ ثم يصف الشاعر كيف كان هذا الهبوط من الجنة حتى يرينا الشيطان ومن معه في قرار الجحيم ، في ظلمات بعضها فوق بعض ؛ ويظل هؤلاء على وجوههم وعلى جنوبهم في هذا الماء زمناً يتقلبون في بحيرة هائلة تتلظى بالحم واللهب وفي نفوسهم رهبة ودهشة مما أخذهم من صاعقة ، ثم يفيق الشيطان بعد لحظة من هذه

(١) Muse ، وكانت عند الاغريق تطلق على بنات زيوس التسع ملهمات الشعر والموسيقى ، وفي ملحمتي هوميروس كان يقصد بها إله الشعر الذي يوحي إلى الشعراء مالبس لهم به علم ؛ أما اليهود والمسيحيون فأحلوا روح القدس محل ذلك ، ويجمع ملتن بين الاثنين فبعد أن خاطب الموز عاد يخاطب روح القدس :

الغاشية فينادى أقرب أتباعه منه منزلة وأولهم بعده مكانة وهو يصلى النار الحامية إلى جواره ويتحاورون فيما أصابهم من هذا الهبوط ؛ ويتكلم الشيطان الأكبر فى الأباء والعناد والأصرار قائلا إنه لخير له أن يحكم فى النار من أن يخدم ويطيع فى الجنة ؛ ثم يدعو الشيطان أتباعه ولم يزالو مكبين فى النار على وجوههم فيهضون فيسوى صفوفهم ويعدهم للقتال ويختار من بينهم قادتهم وكبراءهم ثم يناديهم فيعدهم ويمنيهم باسترجاع مكانهم فى الجنة وينبئهم بدنيا جديدة تخلق ونوع جديد من المخلوقات يدب فيها وكل أولئك يجىء وفق نبوءة أو نبأ تراءى اليه وهو فى الجنة ولكى يعلم مبلغ ما تحقق من هذه النبوءة وماذا يكون موقفهم من هذه الدنيا يشير إلى مجلس ينتظمهم جميعاً حيث ينظرون ماذا يفعلون ! ثم يشير الشاعر إلى مأوى الشياطين أوقصر الشيطان الأكبر وقد استوى قائما منبعثاً من أعماق الماء وهناك يجلس كبار شياطين الجحيم ليوافيهم أتباعهم ليتشاوروا فيما بينهم كما أراد كبير الشياطين أجمعين ؛ وتتزاحم الشياطين على قصر رئيسهم وقد مدوا فى اللهب أجنحتهم وملأوا الجحيم حفيفاً بهـــذه الأجنحة الممتدة ، ثم يتساقطون جماعات جماعات حتى يضيق بهم القصر على سعته .

وفى الكتاب الثانى تبدأ المشاورة فيجلس الشيطان الأكبر على عرش هائل ويتحدث إلى أتباعه متسائلا هل هو خير لهم أن يشنوا معركة أخرى لاسترجاع الجنة التى أخرجوا منها ويدعو كل من يحسن الرأى أن يتكلم بما يرى .

ويتتابع عدد من الشياطين كل يدلى برأيه ويبسط حجته ، فكانوا فريقين ، فريق رأيه الحرب وآخر يخشى عاقبتها ولاينصح بها ، والشيطان الأكبر يوازن بين حجج كل فريق ولكنه لايقطع أمراً ، حتى ينبعث صوت يقترح مؤداه أن يدعوا الحرب إلى أمر آخر هو النظر فى مبلغ صحة تلك النبوءة أو الرواية التى علمت فى الجنة عن خلق دنيا جديدة ، ونوع آخر من المخلوقات يساوى الملائكة منزلة أو هو لا ينزل كثيراً عن مستواهم وهذا هو وقت خلقهم ، وتتجه أفئدة الجميع إلى هذا المقترح وسرعان ما يجتمعون عليه ، ولكنهم يحارون منذا يذهب فى تلك الرحلة العظيمة المسيرة فيستطلع لهم مايريدون ؛ ولا تطول حيرتهم فهذا كبيرهم يعلن أنه يذهب وحده فيأتيهم بنبأ يقين ، ويعجبه الشياطين شاكرين له هاتفين به ؛ وينتفض عن شياطينه المجلس فيذهب كل إلى حيث يقضى الوقت ريثما يعود كبيرهم من رحلته

ويطير الشيطان الأكبر فيقطع فى رحلته أرجاء الجحيم حتى يأتى أبوابها فإذا هى مغلقة وعلى كل باب ثلاث طبقات من الحديد وثلاث من النحاس وثلاث من الحجر الصلد ، وتحرس هـذه الأبواب أنماط من الحرس هى فى أشكالها أليق ما تكون بحراسة أبواب الجحيم ، لا هى من الجن ولا من الوحش ولا من الأفاعى وإنما هى مزيج من هذا كله ركب بعضه فى بعض ، وهى أشباح للخوف والوباء والموت ، ويزجر الخوف الشيطان ويأمره أن يعود إلى مكانه فى النار ، ولكنه لن يزال يطلب أن يفتح له باب حتى يفتح له الموت باباً فيلج منه إلى خارج الجحيم فى عسر شديد ، ويرى مدى مابين الجنة وجهنم من أمد ، ومايزال الشيطان يسبح بأجنحته فى الماء فى عناء وعسر حتى يصبح بمرأى من الدنيا الجديدة فتقع عليها عيناه .

(يتبع) الخفيف

هل قرأت كتاب :

تطور الكتابة العربية

لمؤلفه الأستاذ السعيد الشرباصى
من علماء الأزهر الشريف ؟

إنه أول بحث من نوعه فى المكتبة العربية ، يستعرض أدوار الكتابة ، ويبين أسباب الخطأ فى القراءة ، والوسائل المساعدة لتحسينها وإجادتها ، ويقترح طريقة تيسيرها .

وإليك بعض بحوثه : أصل الخط العربى ، أسباب الخطأ فى القراءة ، الحالة النفسية للقارئ . العوامل المساعدة : اتخاذ قاموس موحد ، إصلاح الهجاء ، رسم المصحف الكريم ، فلسفة الخط ... الخ . مما كتب للخاصة والمثقفين ، ولم يكتب للعامة والجماهير ، فى لغة رائعة نقلت لغة العلم والبحث إلى لغة الفن والأدب .

ويطلب الكتاب من جميع المكاتب العامة بأنحاء الشرق ، أو من المؤلف بتخصص التدريس . كلية اللغة العربية . القاهرة . وثمن النسخة ١٠ قروش وللبريد قرشان وفى الأقطار الشقيقة عشرون قرشاً خالصة البريد